

# المرأة عند الجامع

بين دافعية النمو ٩ دافعية النقص

د. صالحة سُنقر\*

**تناول** الأدباء والشعراء موضوع المرأة من وجهات نظر عديدة ، فبعضهم وقف عند حب المرأة فلمح الى ذلك في نسيب قصيدته ، أو شجب بها ، وتغزل بها ، ومنهم من وصف خلقها وخلقها وحللوا نفسياتها وما تشعر به في صميم قلبها من العواطف والمشاعر ، وآخرون نحوًا منحي آخر فعرضوا نوادر وحكايات عنها ، وألفوا التراجم الخاصة بها وبحثوا فيما تقوم به من أدوار اجتماعية وأدبية وسياسية وفنية ... الخ ... الى جانب من دَعَوْا الى نُصْرَتها وتحريرها وتعليمها وتأهيلها .

والجامع زعيم الأدباء الأول ورائد النقد في عصره وعالم الكلام المرموق، وشيخ المعتزلة البارز . عالج بروح الأديب والمتكلم المسائل العامة التي تمس المجتمع العربي في ذلك العصر ، وكتب في المرأة وعنّها موضوعات كثيرة ضمّنها كتبه ورسائله . فهل أوفاهما حقها؟ وهل أراد لها أن تكون بالصورة المرموقة ، وبالمستوى الذي يؤهلها لأن تكون انساناً سوياً يشارك في مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأدبية والتربوية والفنية وسواها؟ ..

أو أنه قصر نظرته للمرأة على بعد واحد ومجال محدد ، فلم يتجاوز آراء المحافظين التقليديين في هذه المسألة؟ وهل وراء نظرته للمرأة على نحو معين

(\*) وزيرة التعليم العالي في سورية .. باحثة وكاتبة في التربية والتراث .

تكمّن دافعية نقص في حياته النفسية تعود أسبابها الى الظروف الحياتية والبيئية التي عاشها ؟ أو أنه ينطلق في نظريته لها من دافعية نمو - على حد تعبير عالم النفس التربوي (ماسلو) - تعزز تكامل شخصيته وتؤكد الرعاية والحفاوة التي لقيها ؟ وما الدوافع والنوازع الكامنة وراء نظريته للمرأة على نحو معين ؟

وإذا كان علماء النفس والتربية والاجتماع قد أكدوا أهمية مرحلة الطفولة الأولى في حياة الانسان وأثرها في تكيفه الاجتماعي والسياسي والحياتي بصورة عامة ، وأن حرمان الطفل من الحاجات الأساسية له وبخاصة حرمانه من الحب والطمأنينة والتقدير واثبات الذات والانتماء الى الجماعة ، يولد لديه شعوراً بالنقص يتخذ أشكالاً تعبيرية وسلوكية متنوعة ، تتصف بالديناميكية والتعقيد بهدف تعويض النقص واثبات الوجود ، فان توفير هذه الحاجات الأساسية للطفل تضمن له ظروف الحياة السوية فينمو نفسياً واجتماعياً وانهجالياً على نحو صحيح .

وقياساً على ما سبق فان معرفة رأي الماحظ في المرأة ونظريته إليها يقتضي منا الماماً بدقائق حياته ، واحاطة بحقائق طفولته ، ومعرفة بالغة بالعوامل المختلفة التي عملت في تكوين شخصيته وتكوين حياته وتوجيه نشاطه . . . فهل عاش الماحظ طفولته كما ينبغي ؟ وهل نعيم بالطف والرعاية والحنان في كنف أسرة متماسكة تمنحه كل ما يحتاج إليه من غذاء روحي ومادي ؟ وهل حظي بقبول وترحاب الرفاق والأقران من حوله ؟ . . .

ان دراسة حياة الماحظ الأولى تبين أنه لم يكن سعيد الحظ في مستهل حياته وطالعة أمره ، ولم ينشأ كالأطفال الآخرين ينعمون بحنان أهلهم وذويهم ، بل غلب على طفولته البؤس والضيق . . . لقد فقد أباه في فجر حياته ، وحالت الأقدار بينه وبين حنان الأبوة وكفائتها ، توسعت أمه الى تموينه بقدر ما تستطيع ، إلا أنها لم تكن لتعفيه من تحمل أعباء الحياة<sup>(١)</sup> مما اضطره الى بيع الخبز والسّمك بسيحان إحدى جهات البصرة ، وإلى مزاولة أعمال أخرى بين البحرين وغيرهم من عمال البصرة وسوقتها ، وكان عليه أن يكدح في الحياة ، وأن يلتمس أسباب العيش لنفسه ولأمه ولأخته .

والى جانب الفقر عانى من ضالة المنبت والضعفة الاجتماعية ، فجده فزارة  
الأسود كان يعمل جمالاً لعمرو بن قلع الكناني ، مما جعل بعضهم يتردد في  
انتمائه العربي ، مع أنه كناني النسب، عربي الأصل والدم والمنشأ . .

وفوق هذا كله ابتلته الأقدار بالقبح ونبتد الناس له ، فقد كان قبيح الصورة،  
بذ الهيئة ، قصير القامة ، جاحظ العينين . . . . . ويكفيه ألماً وحسرة أن الناس  
أهملوا اسمه الحقيقي ( عمرو ) ونسوا كنيتة ( أبو عثمان ) وأسقطوا عليه  
لقب الجاحظ لمحوظ عينيه أو الحدقي لتتوء حدقته .

ولم يكتف الناس بذلك بل راحوا يهجونه لقباحة شكله أو يهجون الآخرين  
لمشابهتهم به ، فهذا هو ذا أحد خصوم المعتزلة يقول فيه :

**لو يُمْسَخُ الخنزير مسخاً ثانياً ما كان دون قبح الجاحظ**

وها هو مغلد بن علي السلامي يهجو ابراهيم بن المدبر بقوله :

**أراني الله وجهك جاحظياً وعينك عين بشار بن برد**

ومع أن الجاحظ حاول وعلى نحو لا شعوري أن يسدل ستاراً على كل هذا  
وأن يتجاوز معاناته في كتاباته المتنوعة والكثيرة ، إلا أن عظم هذه المعاناة  
كانت تظهر بين حين وآخر وعلى صور مباشرة أو غير مباشرة . . فلم يكن  
بمقدوره مثلاً أن يتجاهل ردود من حوله لوقع قباحتهم في نفوسهم .

فالمتموكل بعد أن هم بجعله مؤدباً لولده عاد فصرف النظر عن ذلك لأن  
الرسوم تفرض في مؤدبي أبناء الأمراء نوعاً من جمال الصورة وبراعة الهيئة  
وحسن التكوين (٢) .

والخليفة الذي عينه في ديوان الرسائل أعفاه بعد ثلاثة أيام فقط على  
تسلمه منصبه ، بسبب وشاية الخصوم ودماثة وجه الجاحظ وعيبه وهما صفتان  
لا تتفقان وقار الملك (٣) .

وإذا كان قبح الجاحظ قد أثر في مشاعر الرجال مما جعلهم ينكرون هذا  
القبح وينفرون منه ، فإن وقعه كان أشد وأبين على النساء ، والجاحظ الذي

يذكر مواقف بعض النساء من دمايته على سبيل الدعاية والنوادر ، إلا أنها في حقيقتها تعكس شرخاً عميقاً في نفسه الحساسة .

فها هي ذي إحداهن تشفيق على أمه لحملها به ، اثر حادثة جرت لها معه ، فتقول لرفيقتها « كانت أم هذا منه تسعة أشهر في جهد جهيد » وتلك أخرى تطنب منه مرافقتها الى صانع الحلبي وينصاع لأمرها ويتبين له أنها تريد نقش صورة الشيطان على فص الخاتم ووجدت في وجه الجاحظ خير معبر لصورة الشيطان .  
وثالثة تتهم من قصّره حين طلب منها أن تنزل لتشاركه الطعام « اصعد أنت حتى ترى الدنيا » .

وحكمنا هذا جاء من خلال كلام الجاحظ عن نفسه ، فرغم براعته في اخفاء مشاعره والتعبير عنها بلغة التهكم والسخرية ، إلا أنه تجاه موقف المرأة من قبحه لم يتمالك ضبط نفسه من القول صراحة : « ما أخجلني أحد إلا امرأتان » وهما السالفتا الذكر ولكن ما أثر طفولته البائسة وقبحه في شخصية عامة ؟ يقول عالم النفس ما سلو الذي وقف حياته على فهم الطبيعة الانسانية ، أن عجز المرء عن تحقيق حاجاته الجسمية والنفسية وما يتعلق بالشعور بالأمن والمحبة والانتماء والتقدير ، يولد لديه دافعاً محرّضاً لسلوكيات متنوعة تكون بدائل عن الوضع العادي ، وتعويضاً عن أوجه القصور والنقص . وتتنوع أشكال البدائل والتعويض بحسب امكانيات الشخص . . . .

فما أشكال البدائل وأساليب التعويض التي ظهرت عند الجاحظ ؟ . ذلك الانسان المرهف الحس ، الشديد التطلع ، الحاد الذكاء ؟ . . .

إن الدارس لمجريات حياة الجاحظ يتبين ولوجه مجالات ايجابية متنوعة بديلاً مما ينقصه وتعويضاً ، من ذلك :

**- التعويض في الجد والاجتهاد :** فالجاحظ لم يترك وسيلة للعلم والمعرفة إلا طرقها ونهل منها . وقد مكّنه استعداد الفطري ومواهبه الطبيعية ودأبه ليصبح موسوعة علم ودائرة معارف واسعة ، كان يرتاد الكتاتيب والمساجد وبخاصة مسجد البصرة الغني بمعارف علمائه وتنوع نزعاتهم وطبائعهم ، ويحضر مربد البصرة الشهير بثقافته المتنوعة من أدبية وعلمية وفلسفية ،

ويشارك في المنتديات والمجالس العامة وخاصة دار موسى بن عمران وغيرها من معاهد العلم ومظان المعرفة ، ويبيت في دكاكين الوراقين للنظر في ذخائرها ، وقد جعل من الكتاب أستاذاً يصحبه أنى ذهب ويدارسه حين يفرغ له في أي ساعة من ليل أو نهار « ولم يكن يقنع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائناً ما كان » .

وقد أتت الدراسة والجد أكلهما لدى الجاحظ المتميز بذكائه المتوقد ، وقريحته النقادة ، وبصيرته النافذة ، وحافظته القوية ، فعمد الى الكتابة والتأليف ولم يشنه عن ذلك مرضه ، فحيويته الكامنة كانت تثور به عليه .

وقد اتخذ من حياته اليومية مبدأً لأدبه ، ومن موضوعات الحياة الاجتماعية مادة لكتابات ، ومن الشك والتقصي طريقاً لمنهجه ، بحيث ذاع صيته ، وانتشرت كتبه فعرفه القاصي والداني<sup>(٤)</sup> وقد ساعده علمه الغزير على أن يكون صاحب نظرية فكرية وطريقة خاصة وأن يبدع في فنون الأدب واللغة وأن يجد حظوته عند الحكام .

**- التعويض في السلوك والأخلاق :** ظهر التعويض جلياً عند الجاحظ تجاه نقص الأبوة ، في تعلقه بأستاذه النظام الذي أغدق عليه حنان الأبوة الكريمة التي كانت نفس الجاحظ شديدة التعطش لها . وظهر التعويض بيناً أيضاً تجاه الفقر والحرمان ، فقد صرف كل ما أعطي من مخصصاته من خزينة الدولة ومن الخلفاء ومنح الوزراء ، وقد جاء الاسراف عنده في حالة اليسر رد فعل طبيعي على الفاقة والعوز اللذين عانى منهما في مطلع حياته .

لقد رغب في أن يحذو سلوك الأمراء والأثرياء فاشترى الجواري اللواتي كن يعملن في بيوت ذوي السلطة والحكام ، وابتاع الضياع كغيره من الموسرين وقد أوقعه اسرافه هذا في الفقر مرة أخرى واضطره الى الاستدانة في أثناء مرضه كما ترك نفور الآخرين منه أثراً في نفسه وجد بديلاً وتعويضاً في التودد الى من حوله ، والتلطف معهم وتوطيد الصلة بالمسؤولين ليظفر من حبههم له وعطفهم عليه بما يعوضه عن آثار القبح والحرمان ، وليجعله ذائع الصيت والشهرة بعد أن كان خامل الذكر لا يؤبه لتأليفه ولا يقام وزن لكتبه<sup>(٥)</sup> .

وقد عرف الجاحظ بخفة الروح والظرف وحسن المعاشرة ولطف النكتة وشدة الحساسية بالكلمة الساخرة والمرح التواق الى الدعابة والاستطراء وساعدته روحه الشعبية على أن يكون أدبه وثيق الصلة بالحياة الشعبية .

ـ **التعويض في الرغبة بالتفوق والاستعلاء :** فهو من أشهر علماء الكلام ، وهو لسان المعتزلة والمدافع عنها وهوزعيم فرقة عُرِفَتْ به وهو الكاتب الأول في تاريخ الأدب العربي . الخ . ولم يكفِه هذا كله بل أحب أن تكون الخلافة له (٦) .

وإذا كان التعويض عند الجاحظ بهدف تجاوز الواقع المرير الذي أحاط به في البدء إلا أن كل رد فعل لا بد أن يتجاوز الوضع الطبيعي الى المغالاة والتزويد . ومع أن كثيراً من نقاد الأدب قد أبانوا عن رأيهم في أدب الجاحظ وفكره وما عالج من موضوعات وما قدمه من اجتهادات . . فان ما يهمنا في هذا الصدد بيان موقف الجاحظ تجاه المرأة والنوازع التي كمنت وراء هذا الموقف ودافعية النقص التي أحدثت عنده شروخاً عميقة في نفسه من المرأة . إن موقف أمه الداحض للعلم ، وموقف النساء من شكله ودمايته ترك آثاراً بينة تجلت في عزوفه عن الزواج والاكتفاء بمعاشرة الجواري ، ومع أن بعضهم قد عزا رغبته في أن يكون بعيداً عن قيود الزواج ومشاغل الأولاد الى التفرغ للعلم والدراسة ، إلا أن جوانب كثيرة من سيرة حياته تكشف أنه كان يقضي في اللهو والمجون وشرب الخمر والغناء ما يأخذ نصيباً كبيراً من وقته . وقد كانت له جارية خاصة ولها جارية تخدمها ، وكان الى جانب هذه يتردد إلى منازل كثيرات من الجواري منهن سندرة وسواها . . ونتيجة ذلك نلاحظ أن كتابات الجاحظ عن المرأة قد تركزت في المرأة القينة ، والمرأة المغنية ، والمرأة الأنثى ، والمرأة الجسد . . ولا نجد أي ذكر للمرأة القريبة من أم وأخت وسواهما (٧) . . فهو يقول : « رأيت أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون المجدولة ، والمجدولة من النساء تكون في منزلة بين السميينة والمشوقة ، ولا بد من جودة القد ومن الحرط واعتدال المنكيين واستواء الظهر ، ولا بد من أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيصة ، وانما يريدون بقولهم مجدولة جودة القصب وقلة الاسترخاء وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول ،

ولذلك قالوا خُصمانه وسيفانة وكأنها جان وكأنها جدل عنان وكأنها قضيب خيزران ، والتثني في مشيتها أحسن مافيهها ولا يمكن ذلك الضخمة والسمنة وذات الفضول والزوائد ، على أن النحافة في المجدولة أعم وهي بهذا المعنى أعرف ، ولم أرَ المجدولة تحبب إلى أصحاب السمان والضخام وإلى أصحاب المشوقات والقضاف كما تحبب تحبب هذه الأصناف إلى أصحاب المجدولات » .

لقد وقف الجاحظ عند المرأة الصورة دون الجوهر ، والشكل دون المضمون ، واتباع موصوفته بشغف وراقبها بدقة ، وأعمل فيها كل طاقاته اللاحظة ، فكان بارعاً في وصفها بليغاً في تصويرها .

وقد يتناول الجاحظ المرأة من حيث الصناعة التي يراها ملائمة لها وهي الغناء فهي تصلح لها دون الرجال ، فيقول :

« كم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهي أن تقبله ، وبين أن تسمعه من تشتهي أن تصرف وجهك عنه ، فأما الغناء المطرب في الشعر الغزل فانما ذلك من حقوق النساء ، وإنما ينبغي أن تغني بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتي فيهن نُطِقت تلك الأشعار وبهن شَبَّبَ الرجال ومن أجلهن تكلفوا القول في التشبيب » ويأتي حكم الجاحظ. هذا كونه شديد الصلة بالحياة الغنائية التي كانت تنقسمها وتعبث بها الأهواء والمنافسات والمذاهب المختلفة<sup>(٨)</sup> ولهذا لم يكتف بقصر الغناء على النساء بل بتحديد مضمون الغناء وما يقوم عليه من غزل وتشبيب دون غناء القصائد الهادفة والملتزمة .

وقد يميز الجاحظ بين النساء بحسب مراتبهن ومستوياتهن عند الرجال ، فهم يفضلون الملوكة على المهيرة ، ويؤثرون الأمانة على الحرة . يقول :

« قال بعض من احتج للعملة التي من أجلها صار أكثر الاماء أحظى عند الرجال من أكثر المهورات ، أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء منها وعرفه فأقبل على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة ، والحرة انما يستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن جمال النساء وحاجات الرجال قليلاً ولا كثيراً ، والرجال بالنساء أبصر ، وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، وأما

الخصائص التي تقع بموافقة الرجال ، فانها لا تعرف ذلك ، وقد تحسن المرأة أن تقول كأن أنفها سيف ، وكأن عينها عين غزال .. الخ .. » .

وهو في هذا كله لا يخرج في نظره للمرأة عن كونها المرأة الشيء ، المرأة المتعة ، دون أن يتناول بالوصف أخلاق المرأة وسلوكها وعاداتها وتربيتها .. الخ .. إنها نظرة قاصرة لا تعكس وراءها إلا عقلية المجتمع التقليدي الذي وجد فيه .

ولا يكتفي الجاحظ بذلك بل يصف القيان في ضوء خبرته لهن ووقوفه على طبائعهن وغرائزنهن ونوازعهن فيحلل أخلاقهن وطرق معاشهن فيقول :

« إن القينة لا تكاد تخالص في عشقها ولا تناصح في ودِّها ، لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبال والشرك .. .. فاذا شاهدها المشاهد رامت باللحظ وداعبته بالتبسم وغازلته في أشعار الغناء و .. .. وأظهرت الشوق الى طول مكثه والصبابة لسرعة عودته ، والحزن لفراقه ، فاذا أحست بأن سحرها قد نفذ فيه تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه وأوهمته أن الذي بها أكثر مما به منها ، ثم كاتبته تشكو إليه هواه ، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعها .. .. وأنه شجنها وشجوها في فكرتها وضميرها في ليلها ونهارها .. .. وأكثر أمرها قلة المناصحة واستعمال الغدر والحيلة .. » إلى أن يقول : « فلو لم يكن لابليس شرك يقتل به ولا علم يدعو إليه ولا فتنة يستهوي بها إلا القيان لكفاه » . ثم يتابع القول : « وليس هذا بدم لهن ولكنه من فرط المدح وقد جاء في الأثر خير نسائكم السواحر الخلابات » .

وعجباً كيف أن الجاحظ انتقى القينة موضوعاً لوصفه وقاربها من ابليس في الدهاء والمكر ثم أردف بأن هذا من فرط المدح ولم يتناول بالبحث والدراسة المرأة الفقيهة ، العالمة ، الأدبية ، السياسية ، الحكيمة .. الخ .. خاصة أن العصر العباسي الذي عاشه الجاحظ شهد نساء شهيرات ذكرت الكتب والتراجم الكثير عنهن ، وكان من الأجدر به أن يتصدى للبحث حولهن وهو الأديب العالم النابغ القادر على تناول هذه الجوانب بالتأليف أكثر من سواه .

ومع أن بعض النقاد يجدون في وصف الجاحظ القينة شاهداً على دقة



عيانه ، ودليلاً على عبقريته ، إلا أننا نجد فيما كتبه أنه نتيجة طبيعية لحياة الجاحظ ومعاشرته لهذا الصنف من النساء واختلافه إلى دورهن واختباره لهن على نحو مباشر مما مكنه من التصوير الحلي لهن وذكر ما بلغ في بعض الفصول والرسائل حد الفحش والتزيد فيه . قاصراً اهتمامه على المرأة الشيء دون النساء الأخريات . ويبرر الجاحظ للقينة انحرافها عن جادة الصواب ملقياً بالتبعة والمسؤولية على البيئة المحيطة بها إذ يقول : « وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة وهي إنماتنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصدر عن ذكر الله من لغو الحديث وصنوف اللعب والأخابيث بين الخلعاء والمجان ، ومن لا يسمع منه كلمة جد ، فهي لو أرادت الهدى لم تعرفه ، ولو بغت العفة لم تقدر عليها » .

وقد أصاب الجاحظ حين جعل البيئة فعالة لما تريد إلا أنه تناسى دور المرأة ذاتها وقدرتها على تجاوز واقعها والسعي لتطويره ليرى أن التشيخ الوسيلة المجدية لتجنب النساء اكتساب العادات السيئة .

فهل التشيخ الوسيلة الوحيدة والاسلوب التربوي الأنجع لحماية المرأة ؟ والجاحظ الذي رأى أن سبيل المرأة إلى العفة أن تؤخذ بالقراءة في المصحف حتى تصير إلى حال التشيخ والتخلق بأخلاق الشيخوخة تجاهل أهمية مراعاة قدرات المرأة واهتماماتها وميولها ، والمرحلة العمرية التي تمر بها ، والتي يمكن عن طريق التوجيه والارشاد الصحيحين أن تكون إنساناً يعطي ويشارك الرجل في بناء الحياة .

إن نظرته في تشيخ الطفولة وحرمانها من العيش السوي والطبيعي لم يخرج بها من دائرة مفهومه القاصر عن المرأة الانسان...! وهو حين يخصص النساء بؤلفه : « في فضل ما بين الرجال والنساء وفرق ما بين الذكور والاناث » يبين من وجهة نظره « في أي موضع يفضلن ويفلبن ، وفي أي موضع يكن المغلوبات والمفضولات ، ونصيب أيهما في الولد أو الفرء ، وفي أي موضع يكون حقهن أوجب ، وأي عمل هو بهن أليق ، وأي صناعة هن فيها أبلغ » .

وهو ليؤكد مكانتها يبين أثرها في نفس الرجل ، فهو عاشق لها والعشق عنده « داء يصيب الروح ويشتمل على الجسم بالمجاورة ، كما ينال الروح الضعف في البطش والوهن في المرء ينهكه ، وداء العشق وعمومه في جميع الأبدان بحسب منزلة القلب من أعضاء الجسم وصعوبة دوائه تأتي من قبل اختلاف علله وانه يتركب من وجوه شتى ، كالحمى التي تعرض مركبة من البرد والبلغم ، فالعشق يتركب من الحب والهوى والمشاكلة والالف » « وهو داء لا يملك دفعه ، كما لا يستطيع دفع عوارض الأدواء إلا بالحمية ومن الأمة عشق القيان على كثرة فضائلهن وسكون النفوس إليهن ولأنهن يجمعن للانسان من اللذات ما لا يجتمع في شيء على وجه الأرض » هكذا جاءت نظرة الجاحظ لتكريم المرأة في عشقها والقيان بخاصة لسكون النفوس إليهن وكنا نأمل أن تكون المقارنة بين الرجل والمرأة في هذا الكتاب شاملة ، موضوعية ، وأن يكون تكريمها لا في جعلها وسيلة وأداة ، والجاحظ أراد أن يقنعنا بأن الرجل عامل لأجل المرأة وحريص على تأمين حاجاتها وساهر على حفظها حيث يقول :

« وعامة اكتساب الرجال وانفاقهم وهمهم وتصنعهم وتحسينهم لما يملكون إنما هو مصروف إلى النساء والأسباب المتعلقة بالنساء ، ولو لم يكن إلا التمنص والتطيب والتطوس والتخضب والذي يعدلها من الطيب والصيغ والحلي والكساء والفرش والآنية لكان في ذلك ما كفى ، ولو لم يكن له إلا الاهتمام بحفظها وحراستها وخوف العار من جنايتها والجناية عليها لكان في ذلك المؤونة العظيمة والمشقة الشديدة » .

وأن الرجل متمسك بالمرأة لا غنى له عنها حيث يقول :

« إن الرجل يستحلف بالله الذي لا شيء أعظم منه وبالمشي إلى بيت الله وبصدقة ماله وعتق رقيقه فيسهل ذلك عليه ولا يأنف منه ، فان استُحلف بطلاق امرأته تربد وجهه وطار الغضب في دماغه وتمنع وعصى وغضب وأبى ، وإن كان المُحلفُ سلطاناً مهيباً ولم يكن يحبها ولا يستكثر منها وكانت نفسها قبيحة المنظر ، دقيقة الحسب ، خفيفة الصداق ، قليلة النشب . . ليس ذلك إلا لما عظم الله من شأن الزوجات في صدر الأزواج » .

وهو حين يتطرق الى موضوع حجاب المرأة فانه يقصر نقاشه على نظرة السابقين للحجاب وعلى سلوك بعضهن ، دون أن يبين أثر الحجاب في نفسية المرأة وهل كان يعوق نشاطها في الحياة العامة . فهو يقول : « لم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والاسلام حتى ضرب الحجاب عن أزواج النبي » « ثم كانت الشرائع من النساء يقعدن للرجال للحديث ، ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً في الجاهلية ولا حراماً في الاسلام » ، « والدليل على أن النظر الى النساء كلهن ليس بحرام أن المرأة المعنسة تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك فلو كان حراماً وهي شابة لم يُحَلَّ إذا عُنِست » ودليل آخر « أن النساء إلى اليوم من بنات الخلفاء وأمهاتهن فمن دونهن يطفن بالبيت مكشفات الوجوه ، ونحو ذلك لا يكمل الحج إلا به » ويقول « الدليل على أن النظر إلى النساء كلهن ليس بحرام أن المرأة المغنية تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك » .

ويبقى التساؤل قائماً : هل وفق الجاحظ بتقديم أدلة منطقية يقبلها العقل ؟ ويبقى هذا القياس الذي جاء به لبيان الحجة والدليل غير مقبول من عالم مثل في عصره الحرية الفكرية بشتى صورها في العلم والدين والأدب وعائش المنطق الفلسفي واستنتاجاته .

ويتساءل المرء لِمَ وقع اختيار الجاحظ على نصوص تراثية تقف ضد المرأة فيوردها في كتبه دون أن يبدي رأياً فيما عرض من آراء مجحفة بحقها ، وقد عرفناه شغوفاً بتحليل القول وتقليب جوانبه لتقبله الأذهان ونعجب لِمَ لَمْ يأت على ذكر الأحاديث الشريفة التي تنصر المرأة وتقف إلى جانبها واكتفى بذكر ما روي عن الرسول ﷺ قوله : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » وقوله : « قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين » وقمت على باب النار فاذا عامة من دخلها النساء » .

كما ذكر الجاحظ ما روي عن عمر بن الخطاب قوله : « أكثروا لهن من قول ( لا ) فان قول ( نعم ) يُضُرُّ يهن على المسألة » .

كما يذكر قول بعضهم : « لاتستشيروا معلماً ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء » ، وقول آخر : « لا تدع أم صبيك تضربه فانه أعقل منها وإن كانت أسن منه » .

وهكذا فالمرأة عند الجاحظ ومن خلال ما اختار من نصوص تراثية لا تصلح كشريك للحياة ففيها الفتنة ومخالفة رأيها واجبة ، وتجنب الجلوس معها مآثرة وإبعاد الأطفال عن التأثير بها قيمة ؟! .

ويعود الجاحظ مرة أخرى إلى المرأة ليبين أنها تفضل الرجل ولكن هل وفق فيما قدمه من أدلة فضلها عليه ؟ وهل هذه الأدلة مقبولة في منطق العصر الراهن ؟ تلك هي المسألة .

يقول الجاحظ : « إن المرأة أرفع حالا من الرجال في أمور منها : » أنها التي تُخطب وتُراد وتُعشق وتُطلب وهي التي تُفدى وتُحمى .

فهل في هذا دليل على رفعة مكانتها ؟ وهل من يملك الفعل والارادة كمن يقع عليه ؟

ويؤكد من جديد علو مكانتها فيقول :

« إن الله خلق من المرأة ولداً من غير ذكر ولم يخلق من الرجل ولداً من غير أنثى ، فنخص بالآية العجيبة والبرهان المنير المرأة دون الرجل لما خلق المسيح في بطن مريم من غير ذكر » .

وبعد كل ما يقدمه الجاحظ يثبت ماخلص إليه السابقون عن المرأة فيقول :

« إن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر وأظهر » . ويدعي الجاحظ لنفسه دفاعه عن المرأة وتغيير تلك النظرة الدونية إليها فيقول : « ولسنا نقول أن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر ، ولكننا رأينا أناساً يزرون عليهن أشد الزراية ويحتقرونهن أشد الاحتقار ويبخسونهن أكثر حقوقهن » .

ويخلص إلى القول : « ليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء أن يصغر حقوق الأمهات وكذلك الاخوة والأخوات والبنون والبنات ، وأنا وإن كنت أرى حق هذا أعظم فإن هذه أرحم » .

لقد أقر الجاحظ في نهاية المطاف أن لكل من النساء والرجال خصائص وفروقا تتناسب وطبيعتهم .

وإذا كان ابن قتيبة قد وصف الجاحظ في كتابه ( تأويل مختلف الحديث )  
بقوله :

« الجاحظ آخر المتكلمين وأحسنهم للحجة استثارة وأشدهم تلطفاً لتعظيم  
الصغير حتى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار  
إلى أن يعمل الشيء ونقيضه » . فإن ما وصل إلينا من كتابات الجاحظ في المرأة  
يجعلنا أقرب إلى حقيقة رأيه فيها على الرغم من أنه لم يبلغ بكتاباته إلى نتيجة  
حاسمة بل عبر وبتحفظ شديد وحيطة بارعة عن موقفه من المرأة .

وكنا نأمل من الجاحظ وهو المتكلم والفيلسوف والمؤرخ والعالم والانسان  
الذي جاب الآفاق وجنى من تنقلاته علماً غزيراً أن يبحث في المرأة وأحوالها ووجوه  
معاشها وأخلاقيها ومجالات عطائها وتكامل دورها مع دور الرجل ، وأن يقوم لنا  
ما أنتجته بعض النساء الشهيرات في ذلك العصر .

والجاحظ الذي نعلي مكانته ، فهو مظهر قوة ومبعث فخر في تاريخنا وأدبنا ،  
لم يتمكن من تجاوز دافعية النقص عنده تجاه المرأة تلك الدافعية التي توافقت  
وقيم المجتمع التقليدي الذي وجد فيه فجاءت معالم المرأة عنده على الصورة  
التي بينهاها .

★ ★ ★

□ الحواشي :

١ - يقول المرتضى عن الجاحظ : « انه كان في حدائثه مشتغلاً بالعلم ، وامه تمونه ، فجاءته يوماً بطبق عليه  
كراريس فقال ما هذا ؟ قالت هذا الذي تجيء به ، فخرج مفتعماً ، وجلس في الجامع ومويس بن عمران جالس ،  
فلما رآه مفتعماً قال ما شأنك ؟ فحدثه الحديث فادخله المنزل وقرب اليه الطعام واعطاه خمسين ديناراً فدخل السوق  
واشترى الدقيق وغيره وحمله الخمالون الى داره ، فانكرت الأم ذلك ، وقالت : من أين هذا ؟ قال من الكراريس  
التي قدمت الي » .

٢ - يقول الجاحظ : « ذكرت لأبي المزمين المتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رأي استبشع منظري ، فأمر لي  
بعشرة آلاف درهم وصرفني » .

٣ - شرط الحكماء في صفات الكاتب : طول القامة ، وعظم الهمة ، وخفة اللهازم ، وكثافة اللحية ، وصدق  
الحس ، ولطف المذهب وحلاوة الشمائل وملاحة الزي .

٤ - روي ياقوت : قيل لأبي هفان : وقد طال ذكر الجاحظ له ، لم لا تهجو الجاحظ ، وقد ندد بك ، واخذ يبعثك ؟  
قال : أمثلي يخذ عن عقله ، والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا وهي بأصين شهرة ، ولو قلت فيه  
الف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة .

٥ - يقول الجاحظ : « كنت أؤلف الكتاب الكثير المعاني والحسن النظم وأنسبه الى نفسي فلا ارى الاسماع لتصفى الي ولا الارادات تيمم نحوه ثم أؤلف ما هو انقص منه رتبة واقل فائدة وأنجله عبدالله بن المقفع او سهل بن هارون او غيرهما من المتقدمين ممن صارت أسماؤهم في المصنفين فيقبلون على كتبهم ويسارعون الى نسخها لا لشيء الا لنسبتها للمتقدمين » .

٦ - سأل بعض اخوانه : كيف حالك يا ابا عثمان ؟ فقال ماؤما : « سالتني من الجملة فاسمعها مني واحدا واحدا ، حالي ان الوزير يتكلم برأيي وينفذ امرى ، ويواتر الخليفة الصلات اليّ ، وأكل من لحم الطير اسمتها ، وليس من الثياب اليها ، واجلس على البين الطيرى ، وأتكنى على هذا الريش ، ثم أمر على هذا حتى ياتي الله بالفرج . فقل الرجل : الفرج ما انت فيه ! فقال بل احب ان تكون الغلالة لي ، ويعمل محمد بن عبد الملك بامرئ ويختلف اليّ فهذا هو الفرج » .

٧ - لم يعرف شيء من أخت الجاحظ سوى ان ابنها يموت بن المزرع كان يتردد الى الجاحظ .

٨ - كان الجاحظ شديد العناية بكتابه (طبقات المغنين) وخشي ان يتعرض الى شيء من التعريف فكان يودع احدى النسخ عند بعض اصحابه من الثقات المستبصرين امانة في أعناقهم ونسخة باقية في ايديهم .

★ ★ ★

□ المراجع :

1 — A. H. Maslow — « Some theoretical Consequences of Basic Need — Gratification »  
Journal of personality 16 U.S.A. 1948.

٢ - باول كراوس - محمد طه العاجري - مجموع رسائل الجاحظ - القاهرة - مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر - ١٩٤٣ .

٣ - بيير دافكو - الانتصارات الملهمة لعلم النفس الحديث - ترجمة وجيه أسعد - ط ٢ - الشركة المتحدة للتوزيع - دمشق - ١٩٨٥ .

٤ - جورج غريب - الجاحظ . دراسة عامة - سلسلة الموسوعة في أدب العربي رقم (١٠) - نشر وتوزيع دار الثقافة - بيروت - لبنان - د.ت .

٥ - شارل بلا - الجاحظ والمرأة - حوليات الجامعة التونسية - كلية الآداب والعلوم الانسانية - العدد ٢٥ - ١٩٨٦ .

٦ - صالحة سنقر - المذاهج انثربوية - مديرية الكتب الجامعية - جامعة دمشق ١٩٨٢ .

٧ - طاهر الكيالي - الجاحظ - المطبعة العصرية - دمشق - د.ت .

٨ - طه العاجري - الجاحظ . حياته وآثاره - مكتبة الدراسات الادبية - الطبعة الثانية - دار المعارف بمصر - ١٩٦٩ .

★ ★ ★